الدكتور محمد غفراني

عرض وتحليل لكتاب «كليلة ودمنة»

إنّ كتاب "كليلة ودمنة" من أقدم كتب الأدب التي عرفها التاريخ، وهو كتاب وضع على ألسنة البهائم والطير لتعليم الحكمة استجماماً للنفوس وترويحا للقلوب، وليكون الجدّ في صورة المتعة التي تجتذب اليها العامة، ويتسلّى بها الخاصة، على أن وراء ذلك مفاهيم قيمة، وحكما رصينة من شأنها أن توجّه القارئ توجيها سليما مستمداً من العقل والتدبير، وهكذا ينصّ عليه "ابن المقفع" نفسه في باب "عرض الكتاب" (١) حيث يقول:

"وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا الا تكون غايته التصفّح لتزاويقه، بل ويشرف على ما يتضمن من الأمثال حتى ينتهي منه، ويقف عند كل مثل وكلمة، ويعمل فيها رويّته... وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب ان يديم النظر فيه من غير ضجر، ويلتمس جواهر معانيه، ولا يظن أنّ نتيجته الإخبار عن حيلة بهيمتين (كليلة ودمنة) أو محاورة سبع لثور (الاسد وشتربة) فينصرف بذلك عن الغرض المقصود، وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنّه ينقسم الى أربعة اغراض:

أحدها: ما قصد فيه الى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع الى قراءته أهل الهزل من الشبّان، فتستمال به قلوبهم لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات.

---

(١) وقد أضافه الى النص الفهلوي عند ترجمة الكتاب الى العربية.

والثاني : اظهار خيالات الحيوانات بصنوف الاصباغ والالوان ليكون أنساً لقلوب الملوك ، و يكون حرصهم عليه أشدّ للنزهة في تلك الصور .

والثالث : أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك و السوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل ، فيخلق على مرور الأيام ، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبدا .

والرابع : وهو الاقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة . (١)

فكلام ابن المقفع هذا إن دلّ على شيء فانما يدلّ على أنّ حكايات " كليلة ودمنة " ذات طابع خلقي و فنيّ انفردت به اذا استهدف المؤلف من ورائها تهذيب النفوس و تعليم الملوك كيف يحكمون ، و تعليم الرعية كيف يطيعون إلى جانب بيان مابين افراد المجتمع من الروابط والاواصر و القواعد التي ينبغي أن تقوم عليها العلاقات الاجتماعية و ذلك باسلوب رمزي يتمثل في الحوار الذي يدور على ألسنة الحيوانات ، فحكايات الكتاب قد تلقّفها الناس أجيالا " ، و تناقلوها أحقاباً ، وفتن بها كل ذي علم وحكمة ليعالج بها القضايا السياسية و الاجتماعية و يستعين بها في تذليل الصعاب

(١) ـ كليلة و دمنة : تحقيق محمد حسن نائل المرصفي . الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ص ١٤٠ ـ ١٤٤ ، ولا توجد هذه الاغراض الاربعة في ترجمة أبي المعالي نصر الله الفارسية والتي تسمّى " كليلة و دمنة بهرامشاهي " ، ويرى الباحث أنّ مردّ هذا الاختلاف الى تعدد ترجمة الكتاب من الفهلوية الى العربية و ليس من تصرف المترجم الفارسي كما زعمه كثير من الباحثين ، و من الغريب أنّ بعض النسخ العربية يخلو منها الغرض الثاني من الاغراض الاربعة (كليلة و دمنة : مطبعة هندية ، القاهرة ، عام ١٣١٥هـ ، ص ٤٢) . و قد استنبط الاب لويس شيخو من قول ابن المقفع : "ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبدا " . أنّ الكتاب كان مزداناً بالنقوش والتصاوير (كليلة ودمنة : تحقيق الاب لويس شيخو . طبعة بيروت عام ١٩٢٣/م ، هامش صفحة ٥٢) .

والتغلب على مشاكل الحياة، و هذا مايقصده ابن المقفع من قوله: أنه الغاية العظمى من وضع الحكايات على ألسنة الحيوانات فهي ضالة الفيلسوف . وهناك تخريج لبعض الباحثين حول " الغرض الرابع " لايستسيغه الذوق العلمي السليم ، فقد ذهب الى أن ابن المقفع قدتكلم فى هذاالكتاب على لسان " بيدبا" الذى يلعب الدورالرئيسى فى سرد قصص الكتاب أمام الملك الهندى " دبشليم " ، فجعل ابن المقفع موقفه من الخليفة العباسى "المنصور" موقف " بيدبا الحكيم " من " دبشليم الملك " فهويقوم بنصيحة المنصور بصورة غيرمباشرة و لم يصرح باسمه خوفاً منه على حياته لمانعلم من المنصور أنه كان شديد البطش بالمخالفين ، و لذلك لم يكشف ابن المقفع القناع عن الغرض الرابع للكتاب واكتفى بقوله : انه خاص للفيلسوف.[1] و هذا التخريج لايخلو من الضعف اذ أنّ ابن المقفع لم يكن يقصد من ترجمة الكتاب عصراً معيناً وزماناً محدّداً و ان كان إصلاح الأوضاع الاجتماعية و السياسية التى كانت تسود عصره من البواعث التى دفعته لى المبادرة الى ترجمة الكتاب و كذلك رغبته فى إحياء تراث الفرس و تخليده كانت من أهم الدوافع التى حملت ابن المقفع على مزاولة مهنة الترجمة و من ثمّ نستطيع أن نقول : إنّ دافع ابن المقفع الأساسى من ترجمة كتاب " كليلة و دمنة" و غيره من الكتب الفهلوية أمثال "خداينامه" و"آئين نامه" و "تنسرنامه" هوإحياء حضارة قومه العريق والعمل على نشرها للاقتباس منها فى دعم الحضارة

---

(١) ـ أحمد امين : ضحى الاسلام . الطبعة الأولى ، القاهرة ، ج ١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

وقدجاء اسم " بيدبا " فى " كليلة و دمنة بهرامشاهى " ، "برهمن" كماجاء اسم الملك " راى " و معناه بالهندية "السلطان" .

الاسلامية. وأما " رسالة الصحابة " (١) التي تعتبر من مؤلفاته فقد كانت بمثابة منشور لإصلاح جهاز الحكم العباسي ، ففي هذه الرسالة يخاطب ابن المقفع الخليفة بلقب " أمير المؤمنين " ويشير الى مواطن الضعف في الدولة ويضع النقط على الحروف ، فابن المقفع في هذه الرسالة يظهر بمظهر المصلح الذي لا يبتغي الا نصح الخلفاء و الأمراء العباسيين بما فيه صلاح ملكهم ودوام شوكتهم فإذن لا يوجد هناك أيّ مبرّر ليستتر ابن المقفع في كتابه الثاني " كليلة و دمنة " و ليخفي غرضه الأساسي من ترجمة هذا الكتاب كما زعم الاستاذ أحمد أمين " و نحن لا نعلم على وجه الدقة والتحقيق تاريخ ترجمة كتاب " كليلة و دمنة " ولِمَ لا يكون قد ترجم بعضه أو كلّه قُبَيل خلافة أبي جعفر المنصور الذي تولّى الحكم عام (١٣٦ هـ) كما أننا لم نقف على أي مصدر تاريخي يثبت أنّ المقصود من لقب " أمير المؤمنين " في " رسالة الصحابة " هو ابو جعفر المنصور وحده ، و لعلّ ابن المقفع قد خاطب به أبا العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين و أمرائهم الذين تسلموا مقاليد الحكم في البلاد الاسلامية بعد إزالة خلافة بني أمية فإذن لا نستطيع أن نربط سبب ترجمة كتاب " كليلة و دمنة " و تأليف " رسالة الصحابة " بعضهما ببعض كما فعل الاستاذ أحمد امين ، و فضلاً عن ذلك إنّ الفترة التي أدركها ابن المقفع من خلافة المنصور كانت قصيرة لا تتجاوز ثماني سنوات ، فقد قتل في عام ١٤٢ أو ١٤٣ الهجري حسب اختلاف المؤرخين ، وهو يحاول أن يبتعد عن الصراع الدامي الذي كان يدور بين أبي جعفر المنصور و أعمامه و خاصة عبدالله بن علي ، ولكنه أصبح ضحية هذا الصراع ، وذهب دمه هدراً (٢). ومن ناحية أخرى أنّ شهرة ابن المقفع قد انتشرت منذ بداية الخلافة العباسية في الأوساط الاجتماعية في البصرة ، و هو في العقد الرابع

(١) ـ والغرض من لفظة " الصحابة " هنا أفراد حاشية الخليفة العباسي .

(٢) ـ سُئل عبدالله بن المقفع لِمَ لا تطلب المعالي ؟ فقال : رأيت ←

من العمر، فلابدّ وأنّه قد قضى شطراً غير قصير من حياته فى العصر الاموى خامل الذكر مما جعله أن يقطع شوطاً كبيراً فى تدوين آثاره كلها أو بعضها فى خلال تلك الاعوام التى هى فترة نضوجه الفكرى و نشاطه الادبى وعند ما استتبّ الحكم للعباسيين ذاعت صيتة ابن المقفع فى البصرة فعرفه سليمان ابن على عمّ المنصور، وأدناه إلى مجلسه، وأعجب به إعجاباً شديداً، و اتخذه مؤدّباً لبعض أولاده، وهكذا عُرف ابن المقفع عند أعمام الخليفة ولاسيّما سليمان بن على، واسماعيل بن على و عيسى بن على ــ و على يد الاخير أسلم ابن المقفع ــ (١)، كما ألزم اسماعيل بن علىّ بعضَ بنيه عبدَالله بن المقفع ليعلّمه، و كان يعمل فى الوقت نفسه فى ديوان عيسى بن على والى البصرة بعد أخيه سليمان حيث عزله المنصور فى عام ١٣٩هـ (٢).

ونتساءل بعد هذا كله هل كان فى وسع كاتب كهذا أن يتفرّغ للتأليف، و الترجمة أثناء توليه رئاسة الديوان إلى جانب مزاولته مهنة التعليم ؟ إ فالفترة التى عاشها ابن المقفع فى العصر العباسى كما أسلفنا لاتكفى عادةً لذلك المنتوج الضخم الذى تركه لنا سواءً منه ما انطمس أو ماتبقّى، و لم ينل منه عوادى الزمن، و هناك أصل يقول به الحكماء : إذا تطرق الاحتمال إلى الدليل بطل الاستدلال به. ومهما يكن من أمر فان صحة ما توصّل إليه الاستاذ أحمد أمين من وجود العلاقة بين تأليف "رسالة الصحابة" وترجمة

(١) ــ ابن خلكان : وفيات الاعيان، فى ذيل ترجمة منصور الحلاج. طبعة الاعيان بالقاهرة، ج ١ ص ١٦٤.

(٢) ــ الجاحظ : البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبى. طبعة القاهرة، عام ١٩٥٦، ج١، ص ٢٧١. وانظر أيضاً ابن النديم : الفهرست. طبعة ليبزيك، ص ١١٨.

المعالى مشوبة بالمكاره فاخترت العزلة ضناً بالعافية. (الراغب الاصفهانى : محاضرات الادباء. طبعة القاهرة ج ٢ ص ٤٤٨) ولم يكن بحسبانه المصير الذى كان قد قرّره القدر.

" كليلة و دمنة " إنما تتوقف على أن يكون ابن المقفع قدقام بتأليف الرسالة قبل ترجمة الكتاب ، و هذا معالم نهتدالیه في المصادر التأريخية المعتمدة عليها ، فنلخص ماذكرنا أن كتاب " كليلة و دمنة " بماينطوي عليه من الحكم العالية التي تستمد مقوماتها من العقل والتدبير و الحزم من شأنه أن يقع موقع عناية الفيلسوف ، وقد ذهب بعض الباحثين الى أبعد من ذلک ، وزعم أن المقصود بالأسد هوأبوجعفر المنصور و المقصود بالثور هوأبومسلم الخراساني وأما " كليلة " و " دمنة " فالمقصود بهما حاشية الخليفة العباسي ، وليت شعري من اين إستنبط الراعم من أسماء تلک الحيوانات الرمزية ـ كمايقتضيه الاطار الفني لحكايات الكتاب ـ أشخاصا " إسلامية عربية وإيرانية في حين أن هذه الاسماء موجودة في الاصل السنسكريتي للكتاب ، وليس إبن المقفع هوالواضع لها (١) ، فمن العبث الاعتداد بمثل هذه الاقوال اليوم بعد أن أثبتت البحوث الحديثة أنه مترجم ، وبعد أن وجدت بعض أصوله الهندية التي تسمى " پنجاتنترا " (٢) ، واتضحت فيها الخصائص الفنية التي تربطها بالادب السنسكريتي ، فالقول بأن كتاب "كليلة و دمنة" قد وضعه إبن المقفع لأجل نصح المنصور وإرشاده و استعار ألقاب الحيوانات و قصد بها رجال حاشيته لايخلو من الضعف ، ولايستقيم مع الواقع التأريخي ، و مهمايكن فان هذا التخريج أيضا لايستند الى دليل علمي و هو بعيد كل البعد عن الصواب (٣) .

---

(١) ـ أنظر تفصيل ذلک في كتاب " إبن المقفع " بالفارسية لعباس إقبال آشتياني ، طبعة برلين .

(٢) ـ بالباء الثقيلة أي الفصول الخمسة ، و قد نقلها الى الفارسية الدكتور ايندوشيكهر و نشرتها جامعه طهران في عام ١٩٦٢ الميلادي .

(٣) ـ راجع مقال إنعام جندي بعنوان شعوبية إبن المقفع " في ←

على أن إبن المقفع هو أعظم كاتب يمثل التيار الفارسي في الثقافة العربية الاسلامية و لولا ماد بجته يراعته الساحرة من ترجمات وافية عن حضارة الفرس و سير ملوكهم و آثار هم الأدبية لمازخر الأدب العربي بهذه التحفة النفيسة من التراث الفارسي العريق فجاء أدبه أعظم بوتقة إنصهرت فيها الثقافتان العربية والفارسية ، و أغزر جدول إنصب فيه الرافدان الفارسي و العربي على السواء ، فبفضل ذلك إكتسبت اللغة العربية ثروة واسعة في الصعيدين الأدبي و الفكري ، ويكفيه فضلاً بأنه هو أول من وضع الأسس الفنية في القصة على لسان الحيوان في اللغة العربية ، ويعدّ عمله هذا حجر الزاوية في تشييد صرح القصة على ألسنة البهائم و الطير بطابعها الفني الجديد الذي لم يكن يأتلفه الأدب العربي من قبل ، فهو رائد كل من أتوا

مجلة " العربي " العدد ٥٤ في عام ١٩٦٣ ، طبعة الكويت . والجدير بالذكران فكرة وضع الكتاب على يد إبن المقفع ليست بأمر جديد ، بل هي قديمة ترجع الى القرن الرابع الهجري ويؤيد ذلك ماجاء على لسان ابن النديم حيث يقول : " وكان ممن يعمل الأسمار و الخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبدالله بن المقفع و سهل بن هارون و علي بن داود كاتب زبيدة . . . . و أما كتاب " كليلة و دمنة " فقد إختلف في أمره فقيل عملته الهند و خبر ذلك في صدر الكتاب و قيل عملته ملوك الاشكانية و نحلته الهند و قيل عملته الفرس و نحلته الهند و قال قوم ان الذي عمله بزرجمهر الحكيم أجزاء و الله أعلم . (ابن النديم : الفهرست . طبعة القاهرة ، ص ٣٠٤ – ٣٠٥) . و يقول إبن خلكان أيضا : يقال ان ابن المقفع هو الذي وضع كتاب " كليلة " و قيل لم يضعه و انما كان باللغة الفارسية فعربه و نقله الى العربية و أن الكلام في أول هذا الكتاب (باب عرض الكتاب) من كلامه . (إبن خلكان : وفيات الاعيان . طبعة القاهره ، ج ١ ، ص ٢٦٧) . و كما قلنا ان هذه الاراء لاقيمة لها من الناحية العلمية بعد العثور على الأصل الهندي للكتاب .

بعده من الأدباء و الشعراء سواء العرب منهم أو الفرس في العصور الاسلامية المتعاقبة حيث حذوا حذوه ، و اقتفوا أثره في تأليف حكايات على لسان الحيوان نظماً و نثراً ، فتركوا لنا آثاراً خالدة غذّت بدورها الأدب العربي و الفارسي بثراء واسع ممتع في هذا المجال ، و من هنا اعتبر الباحثون ترجمة ابن المقفع كتاب " كليلة و دمنة " من الأدب الفهلوي إلى الأدب العربي فتحاً جديداً في فن القصة على لسان الحيوان ، و على الرغم من أن حكايات الكتاب لها أصل هندي إلا أن التأثير المباشر جاء عن طريق اللغة الايرانية لأن الكتاب ترجم عنها و اصطبغ بصبغتها في وفرة الحكم والأمثال التي أضيفت إلى أصله الهندي وذلك كما تقتضيه العادة في سرد الأسمار والقصص الخرافية و الشعبية لدى أية أمة من الأمم ، و خاصة عند نقلها من لغة إلى أخرى و يؤيد نافي ذلك الأستاذ أحمد أمين في معرض الحديث عن أثر الفرس في الأدب العربي حيث يقول : و إنما ذكرنا كتاب كليلة و دمنه و ماكان له من أثر في الثقافة الفارسية ، ولم نذكره فيما يأتي من الثقافة الهندية لسببين أحدهما أن اللغة العربية تلقت الكتاب من الأصل الفهلوي ، ولم تتلقه من الأصل الهندي ، و مترجمه الذي كساه حلة من البلاغه العربية ، وحببه الى الناس هو عبدالله بن المقفع الفارسي ، و ثانيهما أن الفرس و خاصة ابن المقفع زادوا فيه زيادات كثيرة و ان كان من الحق أن نعترف هنا بما للهند في هذا الكتاب من فضل لواضع الأساس وصاحب الفكرة . . " (١) .

و ما أجمل قول عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في وصف هذا الكتاب : " في هذا الكتاب حكمة الهند وجهد الفرس ولغة العرب " (٢) .

و مهما يكن فان لابن المقفع الحظ الأوفر في ترجمه هذا الكتاب الذي

(١) ـ احمد أمين ضحى الاسلام الطبعة الخامسة ج ١ ، ص ٢٣٢ .

(٢) ـ الدكتور عبدالوهاب عزام مقدمة كليلة و دمنة طبعه ممتازة لدار المعارف بالقاهرة ص ٨ .

أحدث تطوراً جوهرياً في القصة على لسان الحيوان في الأدب العربي حيث اتسع نطاقها الفكري، واتخذت طابعاً فنياً جديداً في قالبها و مضمونها و مغزاها حتى أضحت أداة صالحة لمعالجة المسائل الاجتماعية و السياسية في المجتمع العربي الاسلامي فقصص "كليلة و دمنة" كما أسلفنا كلها ذات طابع فني انفردت به دون غيرها و هو يتمثل في ثلاث خصائص:

أولاً: تداخل القصص، إذ أن كل قصة رئيسية تحوى قصصاً عديدة فرعية، و كل قصة من هذه القصص الفرعية قد تحتوى على مثل أو أكثر كما يتبع هذا ظهور شخصيات جديدة من الحيوانات على مسرح القصة دون انقطاع ولأي داعي مناسبة.

ثانياً: إن الحيوانات في قصص "كليلة و دمنة" هي مجرد رموز لا لأنها تتكلم كما يتكلم الناس فحسب بل لأن صفاتها في جوهرها صفات إنسانية لاحيوانية حتى أنها لتنسى أصلها و تصبح إنسانية في موقفها، وهكذا نجد أن مؤلف قصص كهذه يتناسى الشخصيات الحيوانية التي اتخذها رموزاً للناس في سلوكهم و عاداتهم، فيسهب الحديث عن المرموز إليهم غافلاً عن الشخصيات الرمزية فمثلاً نرى أن المال يشد من عزم الفاخر، وحينما يفقده و يصبح فقيراً و تضيع دنانيره ينصرف عنه أصدقاؤه و ينفض عنه أعوانه فيقعد حزيناً ملأ الهم قلبه ثم تأتي إليه السلحفاة لتعزيته قائلة له: لاتحزن لقلة المال فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم بغير مال، والغني الذي لامروءة له يُهان وإن كان كثير المال. (١)

ثالثاً: إن حكايات الكتاب تتصدر بجملة التساؤل مثل جملة (كيف

---

(١) – قد ورد هذا المثل في باب "الحمامة المطوقة" فيقول ابن المقفع على لسان السلحفاة مخاطباً الحُرَد: "فاستعمل رأيك و اعمل بعقلك ولا تحزن لقلة المال فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذي يُهاب و إن كان رابضاً، والغني الذي لامروءة له قد يُهان و إن كثر ماله كالكلب

←

كان ذلك) و ترادفها بالفارسية "جملة" (چگونه بود آن) (١) ثمّ بعد ذلك يبداء المؤلف بنقل القصة التي يجري الحوار فيها غالباً على لسان الحيوان و يقول : (زعموا أنّ . . .) .

بينما نجد ان القصص التي رُويت في الأدب العربي ـ المعزوة إلى الحيوان في صلته بالانسان ـ قبل ترجمة ابن المقفع "كليلة و دمنة" إلى العربية كانت تخلو من تلك الخصائص إذ أنها كانت إمّا فطرية أسطورية ساذجة تشرح ما ساربين العامة من أمثال دون أن تكون لها مفاهيم رمزية مثل الحكايات الخرافية التي يرويها الميداني (٢) في كتابه "مجمع الأمثال" كقصة " الأرنب و الثعلب و الضبّ " و نصّها : " إن الأرنب التقطت تمرةً فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضبّ ، فقالت الأرنب : يا أبا الحسل (٣) فقال : سميعاً دعوتَ ، قالت أتيناك لنختصما إليك ، قال : عادلاً حكمتما ، فقالت : فاخرج إلينا ، قال في بيته يؤتى الحكم ، قالت : إني وجدتُ تمرة ، قال : حلوة فكليها ، قالت : فاختلسها الثعلب ، قال : لنفسه بغي الخير ، قالت : فلطمتُه ، قال : لحقك أخذتَ ، قالت : فلطمني ، قال :

---

(١) ـ بالجيم و الكاف الثقيلتين .

(٢) ـ هو ابوالفضل احمد بن محمد النيسابوري المتوفى عام ٥١٨هـ.

(٣) ـ كنية الضبّ ، والحسل بكسر الحاء المهملة و سكون الشين ولد الضبّ حين يخرج من بيضته . (معجم الوسيط) .

الذي يهون على الناس وإن هو طوّق و خلخل ، ولا تكترث في نفسك لغربتك فإن العاقل لا غربة عليه . . . فأما الكسلان المتردّد المدافع الموكل كذا فإن الفضل قلّ ما يصحبه كما لا تطلب المرأة الشابة تفاعاً بصحبة الهرم " (كليلة و دمنة ، تحقيق الأب لويس شيخو . طبعة بيروت عام ١٩٢٣م ، ص ١٣٧٢ ـ ١٣٨٠

حراً انتصر، قال: فاقض بيننا، قال: قد قضيتُ". (١) فذهبت أقواله كلها أمثالاً أوكقصة الأخوين و الحيّة و الفأس والتي يرويها المفضّل الضبّي (٢) في كتابه " أمثال العرب" فيقول: " زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما فأُجدبت بلادهما، و كان قريباً منهما وادٍ فيه حيّة قد حمته من كلّ أحد، فقال أحدهما للآخر: يافلان: لوأني أتيتُ هذا الوادي المكلأ فرعيتُ فيه إبلي وأصلحتُها فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية، ألاترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلاّ أهلكته، قال: فوالله لأهبطنّ، فهبط ذلك الوادي، فرعى إبله زماناً ثمّ إن الحيّة لدغته فقتلته، فقال أخوه: مافي الحياة بعد أخي خير و لأطلبنّ الحية فأقتلها، أولا تبعنّ أخي، فهبط الوادي فطلب الحيّة ليقتلها، فقالت ألستَ ترى أني قتلتُ أخاك، فهل لكَ في الصلح فأدعكَ بهذا الوادي فتكون به وأعطيكَ مابقيتَ ديناراً كلّ يوم؟ قال: أفاعلة أنتَ؟! قالت: نعم، قال: فإني أفعل، فحلف لها، وأعطاها المواثيق أنه لايضيرها، وجعلت تعطيه كلّ يوم ديناراً، فكثر ماله، ونمت إبله، حتى كان من أحسن الناس حالاً، ثمّ إنه ذكر أخاه فقال: كيفَ ينفعني العيش و أنا أنظر الى قاتل أخي فلان، فعمد إلى فأس ثمّ

---

(١)- الميداني: مجمع الأمثال طبعة القاهرة، ج ٢ ص ١٣، و قد ألف أخيراً الدكتور أحمدى بهنام رسالة حصل بها على درجة الدكتوراه في الأدب العربي من كلية الالهيات و المعارف الاسلامية بجامعة طهران و عنوانها "الأمثال عند الميداني و مقارنتها بالأمثال الفارسية" وقد بذل فيها المؤلف جهداً مشكوراً في دراسة الأمثال العامية عند العرب والفرس و مقارنة بعضها ببعض.

(٢)- هو ابو عبدالرحمن المفضّل الضبّي المتوفى حوالى المنتصف الأول من القرن الثالث الهجري.

كان ذلك) و ترادفها بالفارسية "جملة" (چگونه بود آن) (١) ثمّ بعد ذلك يبداء المؤلف بنقل القصة التي يجري الحوار فيها غالباً على لسان الحيوان و يقول : (زعموا أنّ . . .) .

بينما نجد أن القصص التي رُويت في الأدب العربي ـ المعزوة إلى الحيوان في صلته بالانسان ـ قبل ترجمة ابن المقفع "كليلة و دمنة" إلى العربية كانت تخلو من تلك الخصائص إذ أنها كانت إما فطرية أسطورية ساذجة تشرح ما ساربين العامة من أمثال دون أن تكون لها مفاهيم رمزية مثل الحكايات الخرافية التي يرويها الميداني (٢) في كتابه "مجمع الأمثال" كقصة " الأرنب و الثعلب و الضبّ " و نصّها : " إن الأرنب التقطت تمرةً فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضبّ ، فقالت الأرنب : يا أبا الحسل (٣) فقال : سمعاً دعوتَ ، قالت أتيناك لنختصما إليك ، قال : عادلاً حكمتما ، فقالت : فاخرج إلينا ، قال في بيته يؤتى الحكم ، قالت : إني وجدتُ تمرة ، قال : حلوة فكليها ، قالت : فاختلسها الثعلب ، قال : لنفسه بغي الخير ، قالت : فلطمتُه ، قال : لحقك أخذتَ ، قالت : فلطمني ، قال :

---

(١) ـ بالجيم و الكاف الثقيلتين .

(٢) ـ هو ابوالفضل أحمد بن محمد النيسابوري المتوفى عام ٥١٨هـ.

(٣) ـ كنية الضبّ ، والحسل بكسر الحاء المهملة و سكون الشين ولد الضبّ حين يخرج من بيضته . (معجم الوسيط) .

الذي يهون على الناس وإن هو طوّق و خلخل ، ولا تكترث في نفسك لغربتك فإن العاقل لا غربة عليه . . . فأما الكسلان المتردّد المدافع الموكل كذا فإن الفضل قلّ ما يصحبه كما لا تطلب المرأة الشابة نفعاً بصحبة الهرم . . . " (كليلة و دمنة ، تحقيق الأب لويس شيخو . طبعة بيروت عام ٢٩٢٣م ، ص ١٣٧٢ ـ ١٣٨٠ .

حراً انتصر، قال: فاقض بيننا، قال: قد قضيتُ". (١) فذهبت أقواله كلها أمثالاً أوكقصة الأخوين و الحيّة و الفأس والتي يرويها المفضّل الضبّي (٢) في كتابه " أمثال العرب" فيقول: " زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما فأجدبت بلادهما، و كان قريباً منهما و ادفيه حيّة قدحمته من كلّ أحد، فقال أحدهما للآخر: يافلان: لوأني أتيتُ هذا الوادي المكلأ فرعيتُ فيه إبلي وأصلحتُها فقال له أخوه: إني أخاف عليكَ الحية، ألاترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلاّ أهلكته، قال: فوالله لأهبطنّ، فهبط ذلك الوادي، فرعى إبله زماناً ثمّ إن الحيّة لدغته فقتلته، فقال أخوه: مافي الحياة بعد أخي خير و لأطلبنّ الحية فأقتلها، أولا تبعنّ أخي، فهبط الوادي فطلب الحيّة ليقتلها، فقالت ألستَ ترى أنّي قتلتُ أخاكَ، فهل لكَ في الصلح فأدعكَ بهذا الوادي فتكون به وأعطيكَ مابقيتَ ديناراً كلّ يوم؟ قال: أفاعلة أنتَ؟! قالت: نعم، قال: فإني أفعل، فحلف لها، وأعطاها المواثيق أنه لايضيرها، وجعلت تعطيه كلّ يوم ديناراً، فكثر ماله، ونمت إبله، حتى كان من أحسن الناس حالاً، ثمّ إنه ذكر أخاه فقال: كيفَ ينفعني العيش و أنا أنظر الى قاتل أخي فلان، فعمد إلى فأس ثمّ

---

(١)- الميداني: مجمع الأمثال طبعة القاهرة، ج ٢ ص ١٣. و قد ألف أخيراً الدكتور أحمدى بهنام رسالة حصل بها على درجة الدكتوراه في الأدب العربي من كلية الالهيات و المعارف الاسلامية بجامعة طهران و عنوانها "الأمثال عند الميداني و مقارنتها بالأمثال الفارسية" وقد بذل فيها المؤلف جهداً مشكوراً في دراسة الأمثال العامية عند العرب والفرس و مقارنة بعضها ببعض.

(٢)- هو ابو عبدالرحمن المفضّل الضبّي المتوفى حوالى المنتصف الأول من القرن الثالث الهجري.

فعدلها فمرت به فتبعها فضربها فاء خطاءها و دخلت الجحر، و وقع الفاء س بالجبل فوق جحرها فاء ثرفيه، فلمارأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه، فلما رأى ذلكُ و تخوّف شرها ندم فقال لها: هل لكُ أن نتواثق، و نعود إلى ماكنا عليه ؟ فقالت: كيف أعاودكُ و هذا أثرفاء سكُ، و أنتَ فاجرلا تبالي العهد. فصار حديث الحية و الفاء س مشهوراً يضرب به المثل عند نُكث العهد و انتهاكُ الوفاء به. "(١) وإمّا كانت القصة على لسان الحيوان مقتبسة من كتب العهد القديم و ماء خوذة من مصدر مسيحى أو يهودى كما فى قصص الحيوان المروية عن اء مية بن أبى الصلت (المتوفى فى العام الثامن للهجرة) كقصة " الحمامة و الغراب " التى وردت فى سفر التكوين، من التوراة (٢) ورواها الجاحظ نقلاً عن أمية بن أبى الصلت و يقول: إن نوحاً حين بقى فى اللُجة أياماً بعث الغراب فوقع على جيفة فلم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى فى الارض موضعاً يكون للسفينة مرفاء واستجعلت على نوح الطوق الذى فى عنقها فرشاها فى ذلكُ أى فجعل ذلكُ جعلاً لها (٣)، والعامة تضرب به المثل فى الإبطاء و تقول: ماهو إلا غراب نوح " (٤) و أما ماعدا هذين النوعين من القصص المعزوة الى حيوان فهو متاء خرعن " كليلة و دمنة " و متاء ثر به فى قالبه و مضمونه كقصة " البازى والديكُ "

(١) - المفضّل الضبّى: أمثال العرب. طبعة القاهرة، عام (١٩٠٩م)، ص ١٥٣.

(٢) - إصحاح ٨ - آيه ٦ و ١٢. و انظر ترجمة أمية بن أبي الصلت فى دائرة المعارف الاسلامية.

(٣) - من الجعالة بضم الجيم مايجعل على العمل من أجر و باب الجعالة فى الفقه معروف.

(٤) - الجاحظ: الحيوان. طبعة القاهرة، عام (١٣٢٣ هـ)، ج ٢ ص ١١٧.

التي يرويها خلاّد بن يزيد بن الارقط عن أبي أيوب الموريانى الفارسي وزير أبي جعفر المنصور العباسي ، و يروى الجاحظ هذه القصة بقوله: بينما أبو أيوب الموريانى جالس في أمره و نهيه إذ أتاه رسول أبي جعفر المنصور فامتقع لونه ، و طارت عصافير رأسه ، و آذن بيوم بأسه ، و ذعر ذعراً إنقض حبوته ، و استطار فؤاده ، ثم عاد طلق الوجه فتعجبنا من حاله ، و قلنا له: إنك لطيف الخاصة قريب المنزلة ، فلِمَ ذهب بك الذعر ، و استقر عنك الوجل؟ فقال: ساء ضرب لكم مثلاً من أمثال الناس: زعموا أن البازى قال للديك: مافي الارض شيء أقلّ وفاءً منك قال: و كيف ؟! قال أخذك أهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجتَ على أيديهم ، فاطعموك على أكفّهم ، و نشأتَ بينهم حتى اذا كبرتَ صرتَ لايد نومنك أحد إلا طرتَ ها هنا و هاهنا ، و ضججتَ وصحتَ ، وأخذتُ أنا من الجبال مسناً فعلّموني و ألفوني ، ثمّ يخلى عني فآخذ صيدى في الهواء فأجيئ به الى صاحبي ، فقال له الديك: إنك لو رأيتَ من البُراة في سفافيدهم (۱) مثلَ ما أنا رأيتُ من الديسوك لكنتَ أنفر مني ، و لكنكم أنتم لوعلمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ماترون من تمكّن حالي" (۲) . وهذا المثل مشهور في الادب الفارسي فيقال: "روزى بازى خروسى را گفت بسيار بيوفا هستى ، مردمان ترا پرورند ، و براى تو خانه ميسازند ، و هرگاه تراگرفتن ميخواهند چرا ميگريزى؟! من اگرچه مرغ جنگلى ام ليكن چند روز كه از دست مردمان طعمه ميخورم براى ايشان كار ميكنم ، و هرچند دور ميروم چون طلبيده مى شوم باز مى آيم ، خروس جواب داد كه گاهى بازى را برسيخ ديده؟ و من بسيار خروسان برسيخ ، كباب و برآتش بريان ديده ام ، و تو بسيار دور گريزى اگر بازى را برسيخ بينى باز بلاجواب شد. (۳)

(۱)- جمع السفود بضم السين عود من حديد ينظم فيه اللحم ليشوى و يقال له بالعامية سيخ كباب و هي فارسية و تجمع على أسياخ.

(۲)- الجاحظ: الحيوان ، تحقيق عبدالسلام هارون. طبعة القاهرة

ترجمة النص الفارسي :

قال صقر ذات يوم لديكٍ : إنكَ مفرط في نُكران الجميل ، إن الناس يربّونكَ ويبنون لكَ بيتاً ، و عندما يحاولون الإمساك بكَ تفرّ منهم فلماذا ؟ أمّا أنا فان كنتُ طائراً ضارياً إلا أنني حينما يطعمني الناس بضعة أيام أقوم بالصيد لهم ، و مهما حلّقتُ بعيداً ألبي نداءهم بالعودة فوراً . فأجاب الديكُ هل رأيتَ صقراً معلّقاً على السفود ؟ ولكنني رأيتُ كثيراً من الديوكِ معلقة على السفافيد تتقلّب في نار الشواء ، و إنكَ لو رأيتَ صقراً معلّقاً على السفود لكنتَ قد وليّتَ فراراً بعدمني فلم يحر الصقر جواباً (فبُهت الصقر) و قد ورد هذا المثل أيضاً مع شيء من الإطناب و التفصيل في كتاب "أنوار سهيلي " تأليف الواعظ الكاشفي (١) و هذا نصّه :

(١) ـ هو كمال الدين حسين بن علي البيهقي المتوفى عام (٩١٠ هـ) ، و كتابه هذا تهذيب ـ كما زعم المؤلف ـ لكتاب " كليلة و دمنة " بهرامشاهي الذي نقله من العربية الى الفارسية الدرّية ابو المعالي نصر الله في المنتصف الاول من القرن السادس الهجري ، وترجمته هذه تضاهي ترجمة ابن المقفع في

←

ج٢ ، ص ٢٦١ . و قد وردت القصة كذلك في كتاب " الحيوان " للدميري ، ج ١ ، ص ١٣٨ طبعة القاهرة و كتاب " الوزراء و الكتّاب " للجهشياري ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ ، تحقيق مصطفى السقا و ابراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي ، طبعة القاهرة . و قد ضبط الأب لويس شيخو هذه القصة مع بعض الاختلاف عما نقله هؤلاء المؤرخون القدامى و نسبها إلى شخص اسمه بهاء الدين و لم ينصّ على المصدر الذي اعتمد عليه في نقلها . (الأب لويس شيخو : مجاني الأدب طبعة بيروت ، عام ١٩٢٢ . ج ٣ ص ٦٨) .

(٣) ـ حميد الدين فضل الله سجستاني : بهار دانش . مخطوطة في دار الكتب رقم (١٦٥ ـ أدب خصوصي) ورقه ٤٤ .

" شترية گفت؛وقتی بازی شکاری با مرغی خانگی مباحثه در پیوسته بود ، و مجادله آغاز کرده میگفت تومرغی بغایت بیوفا و بد عهدی ، وحال آنکه صحیفهٔ اخلاق پسندیده وفاست ، و با آنکه وفا بمضمون إن حسن العهد من الایمان دلیل کمال ایمانست ، و جوانمردی و مروت نیز اقتضای آن میکند که کسی صفحات احوال خود را بسمت بیوفائی مرقوم نسازد .

سگ که وفـائی بربا نیستش بهتر از آنکس که وفـا نیستش

مرغ خانگی جواب دادکه ازمن چه بیوفائی دیده ای یاکدام بدعهدی مشاهده کرده ای ؟! باز گفت علامت بیوفائی توآنست که با اینهمه که آدمیان در بارهٔ توچندین تلطف مینمایند ، و بی زحمت و تکلف توآب و دانه که ماده حیات ازآن مدد می یابد مهیا می سازند ، و شب و روز از حال تو واقف بوده بحفظ و حراست تو قیام می کنند ، و بدولت ایشان توشه و گوشه ای داری هرگاه بگرفتن تو مایل می شونداز پیش و پس ایشان گریخته بام بام می پری و گوشه بگوشه میدوی .

حق نمکی نمی شناسی وز منعم خویش می هراسی

و من با آنکه جانوری وحشی ام اگر چه دوسه روزی با ایشان اُلفت گیرم ، و ازدست ایشان طعمه خورم حق آنرا نگاهداشته صید کنم و بدیشان دهم ، و هرچند دورتر رفته باشم بمجرد آوازی که شنوم پرواز کنان باز آیم .

مـرغ دست آموز را چندانکه کس دور افکنـد

با نشـاط بـال آید بازچـون گوید بیـا

الأدب الفارسي و أمّا ترجمة الواعظ الكاشفي فلم تنل العناية و القبول من الوسط الادبي في ايران ، فقد ظهرفي أسلوبه من التصنع و الاطناب مالايستسيغه الذوق الفارسي السليم ، و سنتحدث عن هاتين الترجمتين في مقال قد خصصناه لدراسة مواضع الاختلاف بين النصوص العربية و الفارسية لكتاب " كليلة و دمنة " و الذي نأمل أن نقوم باعداده في مستقبل قريب باذن الله .

ماكيان جواب داد و گفت راست ميگوئى بازآمدن تو و گريختن من ازآنست كه هرگز بازى را برسيخ كباب كرده نديده اى و من بسيار مرغ خانگى را برتابه بريان ديده ام ، اگر تو نيز آن ميديدى هرگز گرد ايشان نگشتى ، و اگر من بام بيام مى گريزم تو كوه بكوه مى گريختى . (۱) "

ترجمة النص الفارسي :

قال شترية (۲) : كان ذاتَ يوم صقريتناقش و يتجادل مع طائرأليف قائلاً له : أنتَ طائر مفرط فى نُكرانك للجميل و نقضك للعهد بينما الوفاء و الاعتراف بالجميل هو صحيفةُ الأخلاق الحميدة ، وكما أن الوفاء عملاً بمضمون أن حسن العهد من الايمان لدليل على كمال الايمان ، و أن الشهامة و المروءة تقتضى أن لاتشوب سجلّ حياة الانسان شائبةُ نُكران الجميل . بيت :

إن الكلب الذى فُطر على الوفاء بلارياء

أفضل من ذلك الشخص الذى لاوفاء له

فأجاب الطائرالأليف متى رأيتَ منى عدم الوفا ؟ أُواءى عهد نقضتُه؟! فقال الصقر إن علامة نُكرانك للجميل هى أن الناس بالرغم من أنهم يفرطون فى إكرامك و يهيّؤن لك مايمدّك بالحياة من مأكل و مشرب وأنت متنعم فى رغد العيش بفضلهم ، ولكنك تهرب بعيداً عنهم عند مايرغبون فى الإمساك بك فتفرّ من سطح إلى آخر و من ركن إلى ركن .

---

(۱) ـ الواعظالكاشفى : انوارسهيلى . طبعةطهران ، ص ۱۲۸ ـ ۱۲۹ .

(۲) ـ و هو اسم أحد الثورين ، وجاء ضبطه فى نسخة "كليلة و دمنة" العربية تحقيق الدكتور عبدالوهاب عزام ونسخة "كليلة و دمنة بهرامشاهى" تحقيق المرحوم الاستاذ مجتبى مينوى " شنزبة " بالنون و الزاء المعجمة و أمّا الثانى فاسمه " بندبة " هكذا فى جميع النسخ العربية و الفارسية للكتاب .

بيت :

أنت ناكرللجميل مما يجعلك تخشى منعمك.

و أما أنا فان كنتُ حيواناً بريّاً إلا أنني إذا استأنستُ بالناس بضعة أيام و تناولتُ طعامي على أكفّهم قدرتجميل صنيعهم ، فأصيد الصيد وأعطيهصاحبي ، و مهماطرتُ بعيداًفبمجرد سماعي للنداء بالعودة أعود مرفرف الجناح .

بيت :

إنّ الانسان مهمابعث بطائر مروّض إلى مكان بعيد

يلبّي دعوته بالعودة مرفرف الجناح

فأجاب الطائر قائلاً : أنتَ صادق القول و انّ السبب في عودتك و هربي هو أنك ما رأيت قطّ صقراً معلقاً على سفود الشواء في حين أنني رأيتُ كثيراً من الطيور تتقلب في المقلاة و لوكنتَ قدرأيتَ مثل مارأيتُ أنا لَما اقتربتَ منهم أبداً ، و أنني لوأهرب من سطح إلى آخر لهربتَ أنتَ من جبل إلى جبل .

فنستطيع أن نقول إن الخاصتين أي تداخل القصص و تناسي الرموزهما فارقان جوهريان بين قصص الحيوان عندالهنودوالفرسوبين قصص الحيوا ن عندالعرب في الجاهلية و إبان ظهور الاسلام ، فكانت ترجمة ابن المقفع كتاب " كليلة و دمنة " من الأدب البهلوي إلى الأدب العربي في بداية القرن الثاني الهجري فتحاً جديداً في الأدب العربي خاصة في العصر العباسي إذ أقبل الكتاب و الشعراء على ترجمة كتاب "كليلة و دمنة " نثراً ونظماً و محاكاتهم له ، وذلك بتشجيع من الأسرة البرمكية التي كان لها دور كبير في إحياء تراثنا الفارسي و على رأسها يحيى بن خالد الذي إستوزره المهدي ثم الرشيد ، و كان محباً للعلم و الأدب يجزل العطايا والصلات الطائلة لهذا الغرض ، فبا شارة منه قام أبان بن عبدالحميد اللاحقي بنظم الكتاب

إلى العربية، و بعد أن فرغ منه حمله إلى يحيى بن خالد، فسرّ به سروراً عظيماً، و أعطاه عشرة آلاف دينار (١)، كما نقله من الفهلوية الى العربية مرة أخرى نثراً عبدالله بن هلال الأهوازي و أهداه إلى يحيى بن خالد البرمكي، وذلك في السنة (١٦٥ هـ) (٢).

والجدير بالملاحظة: أن كتاب "كليلة ودمنة" و إن كان له أصل هندي إلا أن التأثير المباشر صادر عن اللغة الفهلوية لانه ترجم عنها و اصطبغ بصبغتها في فترة الحكم والاء متال، فبعد الكتاب تيارا فارسيا في اللغة العربية في العصر الاسلامي ولعل هذا التأثير قد بلغ ببعض المؤرخين الى ان يزعم أن الايرانيين هم الذين وضعوا حكايات على السنة الحيوانات، ثم انتقلت منهم إلى بلاد الهند (٣)، و مهما يكن فانّ ترجمة ابن المقفع كتاب

(١) وجاء في رواية أخرى أن يحيى بن خالد أهدى أبان بن عبدالحميد مائة الف درهم مكافأة له عن نظم "كليلة و دمنة" (ابن المعتز: طبقات الشعراء، تصحيح استاذ عباس اقبال آشتياني. طبعة القاهرة، ص ١١٢). ولطائب لويس شيخو بحث قيّم عن نظم "كليلة و دمنة" في اللغة العربية، و نشره في مجلة "المشرق"، طبعة بيروت عام / ١٩٠١م، العدد الرابع ص ٩٧٨ ـ ٩٨٦.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون. طبعة استانبول، ج ٢، ص ١٥٠٨، وللأسف لانعلم شيئا عن هذه الترجمة، فانها بادت مع ما باد من الكتب التي الفت و ترجمت للبرامكة اولعلها نسبت إلى ابن المقفع خطأ لشهرته و تقدم عصره مما أدّى إلى اختلاف نصوص الكتاب اختلافاً يؤيد أنه قد ترجم عن الاء صل الفهلوي اكثر من مرة فمن المستبعد أن يكون مردّ هذا الاختلاف الفاحش إلى تصرف الناسخين فحسب.

(٣) ـ ابن النديم: الفهرست. طبعة القاهرة، ص ٤٣٦. و كما قلنا آنفاً من العبث الاعتداد بمثل هذه الأقوال اليوم بعد أن أثبتت البحوث الحديثة أن له اصلاً هندي

"كليلة و دمنة " تعتبر مظهراً قوياً من مظاهر الثقافة الفهلوية في الأدب العربي ، فقد أحدث ابن المقفع بهذه الترجمة تطوراً جوهرياً في فن القصة على لسان الحيوان في الأدب العربي حيث اتسع نطاقها الفكري ، واتخذت طابعاً فنياً جديداً في قالبها و مضمونها و مغزاها ، فاصبحت أداة صالحة لمعالجة المسائل الاجتماعية و السياسية في المجتمع الاسلامي الفتي ، بعد أن كانت القصة على لسان الحيوان في اللغة العربية كما أسلفنا فطرية تعبّر عن ظواهر الطبيعة دون أن تكون لها مفاهيم رمزية ذات رسالة أخلاقية إجتماعية.

و لاخلاف في أن اسلوب ابن المقفع في "كليلة ودمنة " اسلوب المبتكر الفنان معاً ، فعمق الفكرة فيه نظير لدقة الفن ، و هو أقرب إلى الايجاز ، بلا حشو وزيادة ، ولا يخلو مع ذلك من المحسنات اللفظية ، و لكنها صادرة عن طبع ، ولا تكلف فيه ، ولا استكراه ، فهو أسلوب رصين لا استطراد فيه ، ولهذا كان فوق مستوى العامة ، و لا يسهل تذوقه على غير الخاصة ، و لذلك سمّي اسلوبه سهلاً ممتنعاً ، و هنا نأتي على ختام بحثنا عن دراسة اسلوب حكايات كتاب " كليلة و دمنة " في اللغة العربية (و الله ولي التوفيق) .